بَدِيْعُ الإنْشَاءِ والصِّفَاتِ فِي الْمُكَاتَبَاتِ والْمُرَاسَلاَتِ للشَيخِ مَرْعِي بنْ يُوْسُفَ بنْ أَبي بَكْرِ بِنْ أَحْمَدَ المَقْدِسِي الحَنْبَلي (ت ١٠٣٣هـ) :دراسة موضوعية

أ . د فراس عبد الرحمن النجَّار- جامعة الانبار – كلية التربية للعلوم الانسانية
طالبة الماجستير يسرى محيسن -جامعة الانبار – كلية التربية للعلوم الانسانية
anskald8@gmail.com

المستخلص

الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي أحد أعلام القرن الحادي عشر الهجري ، ويمثِّلُ كتابَهُ (بديع الانشاء) أحدى الاضافات القيِّمة للمكتبة البلاغية العربية .وفيهِ يحيطُ الشيخُ بأهمَّ الموضوعات التي يتناولها كتَّابُ الرسائلِ ،ويعرضُ مدى تنوُّعها ، ومساسها بشكلٍ مباشرٍ بكلِّ ما يهم المجتمعَ وبما يلبِّي حاجاتهِ من خلالِ تعدد المواضيعِ التي كتبَ فيها الشيخُ رسائلَهُ ، وعبَّرَ من خلالها عن احتياجاتِ أبنائهِ المختلفة .وقدْ قُسِّمَ البحثُ الى اقسامٍ تنوعتْ بتنوعِ الأغراضِ التي تناولتها الرسائلُ ، والتي استوعبتْ – أو حاولت استيعاب – أكثرَ الموضوعاتِ التي عبَّرَ عنها الأدبُ العربي بشقِّيهِ الشعر والنثر. ومن هذهِ الموضوعات الوصفُ ، والمديحُ ، والعتابُ ، والتهنئةُ والتعزيةُ ، والوصايا والشفاعات ، وغيرها من المواضيعِ التي تناولتها رسائلُ الشيخُ مرعي .

الكلمات الرئيسية : البلاغة العربية ، الدراسات النصِّية ، مرعي بن يوسف الكرمي ، فن الرسائل الادبية

Abstract

Sheikh Maree B. Yousif AlKarmy is one of the figures of the eleventh century AH. His book Badee AlEnsha (Wonderful Composition) is a major contribution to Arabic rhetorics heritage. This book deals with many subjects of relevance to the needs of his contemporary society. Thispaper falls into two sections in order to cover the

various subjects of Arabic poetry and prose covered in this book like description, praise, congratulation,…etc.

Keywords: Arabic Rhetoric, Textual Studies, Maree B. Yousif AlKarmy, Art of literary letters

المبحث الأول: تمهيد

١ :- مؤلف كتاب (بديع الانشاء) :

هو الشيخ مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن احمد الكرمي – نسبةً الى طور كرم – قريةً من قُرى فلسطين[١] . مؤرخٌ ، وأديبٌ ، وإمامٌ ، ومحدِّثٌ وفقيهٌ ، وكان ذا اطلاعٍ واسعٍ على نقولِ الفقهِ والحديثِ ، ومعرفةً تامةً بالعلومِ المتداولةِ آنذاك ، ومنهمكٍ فيها انهماكاً تاماً ؛ فقضى زمانَهُ في الإفتاءِ ، والتدريسِ ، والتصنيفِ[٢] ، وكانَ بارعاً في مختلفِ العلومِ سواءً الشرعية منها كالفقهِ والحديثِ ، والتفسيرِ ، والعقائدِ ، أو علومِ اللغةِ العربيةِ منْ نحوٍ ، وصرفٍ ، وبلاغةٍ ، أو علومٍ اخرى كعلومِ التاريخِ ، والسيرةِ ، وغيرها . ولذا نجده غزيرَ التأليفِ والتصنيفِ ؛ إذْ أنَّهُ قدْ ألَّفَ حوالى الثمانينَ مؤلَّفاً ، تنوعتْ ما بينَ الكتبِ الكبيرةِ ، والرسائلِ الصغيرةِ[٣] .

٢:- أهمية الكتاب وسبب تأليفَه

كتابُ (بديع الانشاء) أو ما يُسمَّى (إنشاء مرعي) قدْ وضعه مؤلِّفَه لتسهيلِ الطريقِ على منْ يحتاج الى كتابةِ الرسائلِ والمكاتباتِ ، وضمن حدودِ البلاغةِ العربيةِ ، خصوصاً منْ يكتبُ للملوكِ ، أو للحكَّامِ ، أو ممنْ أُبْتُلِيَ بكثرةِ الرسائلِ . وقدْ راعى الشيخُ فيهِ مقاماتِ الناسِ ومستوياتهم الثقافيةِ المختلفةِ ، منْ خلالِ تطبيقهِ لمبدأ (لكلِّ مقامٍ مقال) ؛ فجاءتْ اساليبُ الرسائلِ مختلفةٌ ، ومتنوعةٌ ، وحسب ما يفهمهُ كلُّ مخاطبٍ ، ويؤثرُ فيهِ . وهذا يدُلُ على سعةِ علمِ الكاتبِ ، وخبرته العميقة بمنازلِ الناسِ ومقاماتهم ، وأساليب مخاطبتهم

بما يحقق الغايةَ والمبتغى ، ألا وهو إيصالُ ما يريدُ الكاتبُ إيصالَهُ اليهم بأقصرِ الطرقِ ، وأبلغِ العباراتِ ، ودونَ حشوٍ ، معَ بساطةٍ في الإسلوبِ ، وبعيداً عنْ التزويقِ اللفظي المبالغِ فيه ، أو استخدامِ مفرداتٍ غريبةٍ ووحشيةٍ تجعلُ من الرسالةِ مادةً صعبةً ؛فجاءَ الكتابُ منوعاً ، حاوياً على مختلفِ اساليبِ كتابةِ الرسائلِ ، وكلٌّ حسبَ ما يناسبُهُ .

المبحث الثاني: الدراسة الموضوعية

تعددَتْ أغراضُ الرسائلِ الأدبيةِ ، وقد تطورت حتى غدتْ قادرةً على استيعابِ أكثرِ المواضيع التي عبَّرَ عنها الأدبُ العربيُ منذ القدم ، بفرعيه الشعرُ والنثرُ . وكانَ منْ النتيجةِ لذلكَ أنْ أصبحَ فنُّ الرسائلِ يقف على أبوابِ الأدبِ المحض ويعبّرُ عنْ أهمِّ مواضيعه. وهذا كان مؤشِّرٌ على تعدادِ طرقِ التعبيرِ عن هذهِ المواضيع.

فقد عمدَ كُتَّابِ الرسائلِ الى ابتكارِ أساليبَ حديثة أخرجتْ الرسائل عنْ صورها التقليديةِ والتي بقيت تُلْقي بظلها على الرسائلِ الديوانيةِ والاخوانيةِ سواء أكانَ ذلك بالشكلِ او بالمضمونِ .والشيخُ مرعي بن يوسف عملَ على كتابة رسائلهِ في قوالبَ فنيةٍ مبتكرة تنأى عنْ القالبِ التقليدي الذي سار عليهِ فنُّ الرسائلِ وقتا طويلاً.

ومنْ الأغراضِ التي تناولتها رسائل الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي :-

١) الوصف

ويُعَدُّ منْ أشملِ الأغراضِ الأدبيةِ التي عُرِفَتْ في الأدبِ العربي ؛ فقدْ قالَ عنهُ ابن قُدامة :(الوصف هوَ ذكرُ للشيء كما فيهِ منْ الأحوالِ او الهيئاتِ)[٤].

وقدْ أحسنَ المؤلفُ في توظيفِ هذا الغرضِ الأدبي ، مستخدماً لكلِّ صنفٍ من المُخَاطَبينَ العباراتِ الملائمةِ لمقامهِ ، ودرجتهم بين الناسِ . فلاحظُ أنَّهُ– وفي البابِ الرابعِ– قدْ ابتدأَ بالسلطانِ ،واصفاً إياهُ بصفاتٍ تدلُّ على أبَّهةِ المُلْكِ وعَظَمَتِهِ منها:(مولانا السلطان الأعظم وحاكمنا الخاقانِ الأكرم ،وسيدنا الملاذِ الافخم)(٥) مستخدماً من الالقابِ ما كان يوصفُ بها السلطانُ العثماني آنذاكَ ، معَ إشاراتٍ الى المعاركِ التي كانتْ تقودها الدولة العثمانية ضد أعدائها وقتئذ ؛ إذ أنَّ المصنَّف قدْ عاصرَ أربعةَ سلاطينٍ منْ سلاطينِ الدولة العثمانيةِ ابتداءاً من مراد الثالثِ (٩٨٢هـ) ، وحتى بداية حكم مراد الرابع (١٠٣٢هـ)(٦).

وخلال تلكَ الفترةِ كانتْ الدولةُ العثمانيةُ تقودُ حروباً شرسةً ضدَّ أعدائها ؛ منْ أجلِ توطيدِ وإرساءِ دعائمِ ملكها ؛ ولذا استخدمَ المصنِّفُ أوصافاً كثيرةً مرتبطةً بذلكَ منها(من بسطُ الأمنِ والأمان وقمعُ عَبَدَةَ الأوثانِ وكذا الصُلْبانِ)(٧) وغيرها الكثير مما استخدمهُ المؤلفُ في وصفِ السلطانِ . كذلكَ لمْ ينسَ ذكرَ الوزراءِ ، والأمراءِ ، والولاةِ الذينَ ثبَّتوا ركائزَ الدولة العثمانية في مصرَ وغيرها من البلادِ الاسلاميةِ .

وكانَ المؤلفُ يضمِّنُ رسائله المصطلحاتِ التي كانتْ تُسْتَخْدَمُ في ذلكَ العصرِ في وصفِ وظائفِ منْ يتكلم عنهم مثل : الخاقان ، والمشير و الدفتر دار، وكبير الصناجق ، وأمير الألوية وغيرها من المراتبِ ، والوظائفِ التي كانتْ معروفةً آنذاك في عهدِ المصنِّفِ .

ونلاحظُ دقَّةَ المصنِّفِ في مخاطبتهِ ووصفهِ لكلِّ فئةٍ بما يميُّزها عن غيرها من الفئات ، فلو أخذنا وصفهُ للصوفي نلاحظُ أنَّهُ يستخدمُ المصطلحاتِ التي يستخدمها المتصوفةُ ، ويوظفُّها بطريقةٍ تدلُّ على سعةِ علمهِ ، ومعرفته العميقة بكلِّ صنفٍ ، وما يلائمهُ من المصطلحاتِ فنلاحظ استخدامه

للمصطلحاتِ مثل : (مولانا شيخُ الطريقةِ ، والحقيقة والقطب ، وصاحب الكشفِ والمرشدُ ، والمريدُ)[٨] وغيرها من الاصطلاحات التي يستخدمها المتصوفةُ وهكذا مع بقية أصنافِ منْ يخاطبهم كالبليغِ ، والمُدرِّسِ وصاحبِ العسكرِ ، وغيرهم ممنْ استخدمَ في وصفهم المصطلحات التي تختصُ بهم دونَ غيرهم .

كما أنَّهُ لمْ ينسَ إدراجَ أسماءٍ لمصنَّفاتٍ مهمةٍ ، وكُتُبٍ قيِّمةٍ لا غنى للناسِ عنها ، مما يدلُّ على سعةِ اطلاعهِ ؛ فقدْ استخدمَ لكلِّ فئةٍ الكتبَ الخاصةَ بهم ، فمثلاً معَ المفسِّرِ ضمَّنَ الوصف كتب (معالم التنزيل) و(الكشَّاف) للزمخشري ، وللبليغِ (أسرار البلاغة) للجرجاني و(مفتاح العلوم) للسكاكي ، و(فوائد الفوائد) ، وللنحوي (المغني) ، و للاصولي (جمع الجوامع) و(همع الهوامع) ، وللغوي (الصحاح) و (لسان العرب) .

وهكذا مع بقية الاصناف .

٢) المديح

المديحُ هوَ تعدادُ جميلِ المزايا ، ووصفٌ الشمائلِ الكريمةِ ، وإظهارٌ لتقديرِ العظيمِ الذي يكنُّهُ الكاتب لمنْ توفرتْ فيه تلكَ الصفات .

وهوَ منْ أغراضِ الأدبِ العربي الذي يقومُ على عاطفةِ الاعجابِ ، ويعبِّرُ عنْ شعورِ الكاتبِ تجاهَ الفردِ ، أو الجماعةِ أو الهيئةِ ، وقد مَلَكَ على الأديبِ إحساسَهُ ، وأثارَ روحَ الإكبارِ والاحترامِ لمنْ وضعَهُ في موضعَ المديحَ ، وهذا ما يكنُّهُ الأديبُ لمنْ توافرتْ فيهِ هذهِ المزايا وعُرِفَ بمثلِ هذه الصفاتِ والشمائلِ[٩] .

ونظرة المادحِ الى من يمدحه، يشتركُ فيها الناسُ كلهم سواء أكانَ زعيماً ، أم قائداً ، ام من الوجهاء فهذه نظرةٌ خاصةٌ فيها الكثيرُ منْ التقدير ، ويعبِّرُ فيها كاتبها عنْ ذاتهِ بما يتوفر لديهِ منْ انواع القولِ والحديثِ والبيانِ .

فمما مدحَ بهِ الكاتبُ سلطانَ عصرهِ قوله : (من وجَّهَ عَنَانَ العنايةِ الى حمايةِ الاسلامِ بشهادةِ الإجماعِ ، وتلكَ – لعمر الله – شهادةٌ لا يتطرقُ اليها ابدا نزاعُ، ومن جدَّدَ بنيانَ الهدايةِ بعدما درستْ آثارُهُ ، وطُمِستْ على مدى الدهر معالمهُ ، ومن مهَّدَ بساطَ العدلِ بعدَ أنْ لمْ يوجدْ إلاَّ المظلومٌ وظالمُهُ)[١٠] ، وقولُهُ في موضعٍ آخر يمدحُ فيهِ أحدَ أمراءِ الأقاليمِ : (منْ قد بثَّ عساكرَ بفضلهِ ، وسراياهُ ، وقد اشتملتْ على العدلِ سيرتُهُ وكذا سجاياهُ ، وقد أحسنَ في السياسةِ ، وقد قامَ بحقِّ الرئاسةِ)[١١].

وكذلكَ قولهُ في مدحِ أحدِ القضاةِ : (من أذلَّ الباطلَ وقد كان شامخَ الطرفِ ، ومن بَسَطَ الإنصافَ وقد كانَ مقبوضَ الكفِّ ، ومن شيَّدَ الشرعَ وقد أعزَّ أنصارَهُ ، ومن أزالَ الجورَ وقد عفا آثارَهُ)[١٢] . وهكذا يمضي الشيخُ بمدحِهِ لبقيةِ اصنافِ الناسِ من علماءَ ، ومدرِّسين ومفتينَ وبلغاءَ ، ومفسِّرينَ وغيرِهم ، معَ تخيِّرِ الألفاظِ المناسبةِ لكلِّ صنفٍ حتَّى أنَّهُ أضافَ أسماءَ الكتبِ ، والمصنَّفاتِ التي تستخدمها كلُّ فئةٍ كـ (معالمِ التنزيل ، و الكشَّافِ ، ومفتاح العلوم والفوائدِ)[١٣] وغيرِها من الكتبِ التي يستخدمها المفسِّرونَ في مجالهم.

وأمَّا المناطقةُ فقدْ مدحهم بما يخصُّ مجالهم فقال عنهم : (من جُمِعَ لهُ في السيادةِ من كلَّ كليَّةٍ ومن كل جزئيةٍ ، وقد اكتسبَ منْ أشكالِ المعروفِ التي تنتج لمزيدِ من الثناءِ كلَّ قضيةٍ تكون حملية)[١٤] .

ولمْ ينسَ إدخالَ أسماءِ البحورِ الشعريةِ في معرضِ مدحِهِ للعروضي فقالَ : (منْ هوَ البحرُ فهو بكلِّ فضلٍ محيط ، وقد حازَ المجدَ الكاملَ الذي هو بالجودِ

البسيطِ ، وكان طويلُ الباعِ ومديدُ المناقبِ وبسيطُ الأيادي بالندى الذي هو المتقاربِ)[١٥] ، كذلكَ فعلَ معَ المحدِّثِ الذي قال عنهُ : (من رأى ما انقطعَ من الأخبارِ فوصلهُ ، ورأى موصولَ الآثارِ فأوقفهُ على منْ قد قالهُ ونقلَهُ الذي هو الحسنُ الفعالِ ، من تواترَ حديثُهُ العذبِ وقد تسلسلَ ، وقد اشتهرَ خبرُهُ المطلقِ فصحَّ عنه أنَّهُ بقيدِ البلاغةِ قد تسلسلٌ)[١٦] . وهكذا يمضي الشيخُ في تطويعِ المفردات بما يلائمُ غرضهُ واستخدامِ المصطلحاتِ الخاصةِ بكلِّ فئةٍ استخداماً يرسمُ بهِ لوحةً رائعةً في مديحِ تلكَ الفئةِ .

وعلى الرغمِ منْ التطوُّراتِ التي مرَّ بها الأدبُ العربيُ ، ومنْ التغييرِ الذي أصابَهُ منْ حيثُ المفاهيمُ ، والمقاييسُ ، فالمديحُ لمْ يغبْ يوماً عنْ مسرحِ الأدبِ ، بلْ ظلَّ هو الأصلُ ، وسائرُ الفنونِ الأدبيةِ هيَ الفرعُ . ومنْ المعروفِ أنَّ الأديبَ العربيَ كانَ يرسمُ في ممدوحهِ المثاليةَ الخلُقيةَ الرفيعةَ التي يقدِّرُها المجتمعُ ، فأذا كانَ مؤثِّراً في حياةِ عصرهِ السياسيةِ كأنْ يكونَ خليفةً أو والياً ، عَرَضَ لأعمالهِ وللأحداثِ التي شاركَ فيها ، وإنْ كانَ بطلاً يقودُ الجيوشَ صوَّرَ بطولتَهُ وما خاضَ من معاركٍ ، وقدْ سارَ أديبنا على هذهِ الطريقةِ في مدحهِ ؛ إذ نراهُ يبدعُ في تصويرِ المُثُلِ الخُلُقيةِ على هيئةِ صورٍ حيَّةٍ ناطقةٍ ، يتعدى الحصرَ والعدُّ ما استنبطهُ منْ المعاني في علوِّ الهمَّةِ والبأسِ ، والشجاعةِ ، وشرفِ النفسِ ، والكرمِ ، والسماحةِ وغيرها الكثير ، حتى لتصبحَ هذه الصفات الكريمة تماثيلَ قائمةً نصبَ أعينِ الناسِ ؛ ليحتذوها ويقتدوا بها و وليحوزوا لأنفسهم مجامعَ الحمدِ والثناء.

٣) العتاب

العتابُ في مفهومهِ – كما يقولُ الخليلُ بن أحمد الفراهيدي – (هو خطاب الدلال وذكر الموجدةِ)[١٧] ، وأمَّا الأزهريُّ فقدْ توسَّعَ في توضيحِهِ فقالَ : (هوَما كان من كلامُ المدلِّينَ لإخلَّائهم لانهم طالبينَ بذلك حُسْنَ مراجعتِهم

،وتذكير بعضهم لبعض ما كرهوهُ مما قد اكسبهم الموجدةَ)[١٨] وهو في الآداب من الفنونِ الوجدانيةِ التي يلجأُ لها الأديبُ – بدوافع متباينةٍ – الى ادب يتوسطُ فيهِ بينَ لومِ المعتوبِ عليهِ من دون أنْ يوجعهُ فينقلبُ العتاب الى هجاءٍ ودونَ ان يكون طلبِ الإبقاءِ على الودِّ مما يضعُهُ موضعِ التوسُّلِ والاستعطافِ ولذلك يحتاجُ موقفُ العتابِ الى البراعةٍ ، والقدرةٍ على جعلَهُ متوازناً ومؤثراً ولهذا السببِ كانَ العتابُ من المواضيعِ الرئيسيةِ التي تناولها الشيخُ في رسائلِهِ ، بل وأفردَ لهُ باباً خاصَّاً به ضمَّنهُ العديدَ منْ رسائلِ المعاتبةِ والتي تُرسلُ في مناسباتٍ مختلفةٍ ومنها قولُهُ في رسالةٍ جعلَ عنوانَها (معاتبةٌ بعدمِ المكاتبةِ) : (اني يعزُّ عليَّ منْ سيدي ومولاي انقطاعِ كتبِهِ عنِّي ، وانفصالِ اسبابِها منِّي ، وقد عودني أنْ يواصلَني بكتاباتِهِ او يتحفَني بمراسلاتهِ)[١٩] . ويمضي الشيخُ في إيرادِ نماذجَ متنوعةً منْ رسائل العتابِ فيقولُ في إحداها – والتي يعاتبُ فيها المُخَاطَبَ بسببِ الغيابِ – فيقولُ : (ما هو سببُ طولِ غيبتك عنِّي ، او تباعدك منِّي ؟ وما هو العذرُ في سببِ عدمِ حضورِك ؟ وما الداعي لهذا النفورِ منك ؟)[٢٠] . والشيخُ لم يغفلْ كتابةَ رسائلَ العتابِ المرسلةِ منْ الطرفِ الآخرِ – وهو المُعَاتَبِ – فجمعَ في هذا البابِ بينَ الرسائلِ التي يرسلُها المُعَاتِبُ والرسائلِ التي يردُّ بها المُعَاتَبُ ، ومنها جوابٌ كَتَبَهُ فيمن عاتبَهُ على عدمِ الحضورِ فيقولُ فيهِ : (وأمَّا سبب انقطاعُ حضوري عنْ مجالسكم الشريفةِ ، ومحافلِكم المنيفةِ ؛ فبسبب ما أحدثَتْهُ الأيامُ و كذا الليالي منَ العوارضِ والانشغالِ ، وإلاَّ ففي كُلِّ وقتٍ وحين يريدُ المُحبُّ أنْ لو كانَ هو بكعبةِ مجدِكم طائفا ؛ ليجني من ثمَرَاتِ صفاتِكم الجميلة لطائفا)[٢١] .

ومنْ رسائلِ العتابِ كذلكَ نجدُ رسالةً كتبها الشيخُ الى أحدِ اصدقائِهِ يعاتبُهُ فيها ؛ لأنَّهُ اصاخَ السمعَ لمنْ حاولوا الوقيعةَ وإفسادَ الودِّ بينهما .

وقدْ استرسلَ في هذهِ الرسالةِ فلم يتصنَّع ، وهذا ربما يعود الى طبيعةِ الموضوعِ الذي تناولتهُ الرسالةُ ، وقدْ استهلَّها ببيتينِ منْ الشعرِ عبَّرَ بهما عنْ ثقتهِ الكبيرةِ التي كانَ يكنُّها لصديقِهِ ، وأنَّهُ لمْ يكنْ يتوقع منهُ التغيُّرَ الجفاءَ ، لكنَّ ما يخشاهُ قدْ وقعَ ومعَ هذا فهوَ يُلقي اللومَ على الدهرِ لأنَّهُ (في الإخوانِ خوَّانُ)[٢٢]، كما أنَّهُ اعتبرَ تغيُّرَ الأصدقاءِ منْ أعظمِ الألمِ ، و أقساهُ فنجدهُ يقولُ : (إنَّ من أمضِّ الألمِ ، بلْ هو من أعظمَ المصائبِ تغيَّرَ الاصدقاءِ والاصحابِ ، او تكدُّرَ الخلَّان او الأحبابِ ، وهذا – لعمر الله – مما قد يُعظِمُ على العاقلِ أمرُهُ ، وكذا يضيقُ بهِ صدرُهُ ، وقد يشتغلُ بهِ فكرُهُ)[٢٣] ، ومعَ هذا فأنَّهُ يعللُ عتابَهُ لصديقهِ بقولهِ : (الا أنَّ المملوكَ لمْ يوسعْهُ في ذلكَ الا معاتبةِ المالكِ ؛ لانها سُنَّةُ عند أهلِ المحبَّةِ ، وطريقةُ لدى أهلِ المودَّةِ والصحبةِ ، ولولا وجود مزيدُ من محبَّةِ المملوكِ للمالكِ لما عاتبَهُ على شيءٍ منْ ذلكَ)[٢٤] .

لقدْ خلتْ رسائلُ العتابِ من التصنُّعِ – كما أسلفنا – واستخدمَ الكاتبُ فيها أسلوبَ المعاتبة الرقيقِة معَ التماسِ الأعذارِ للمُعَاتَبِ ، كما أنَّ جُمَلَها جاءتْ قصيرةً وألفاظها كانت معبَّرةً ، وموجَّهةً بإسلوبٍ بليغ راقٍ ، ومن دونَ تجريحٍ أو تقريعٍ ، بلْ بكلِّ محبَّةٍ ومودّةٍ ، وهذا عهدُ الصديقِ المُخلصِ الحريصِ على إبقاءِ الأُلفةِ والمحبَّةِ بينَهُ وبينَ منْ يُعاتِب .

٤) التهنئة

منْ الموضوعاتِ التي طَرَقَها الشيخُ مرعي ، بلْ وجعلَ لها باباً خاصاً بها – كما هوَ عهدُهُ ببقيةِ المواضيعِ الأخرى – موضوعُ التهنئةِ – التي هيَ خلاف التعزية[٢٥]– والتي تمثِّلُ لوناً منْ ألوانِ

المشاركةِ القلبية بينَ الكاتبِ ، وبينَ منْ يُرسلُ اليهم التهاني، مشاركاً إياهم فرحتهم وبهجتهم .

وتتنوعُ المواضيعُ التي تتناولها التهنئة ، فنجدهُ يبدأُ برأسِ الهَرَمِ السلطوي في الدولةِ ويفتتحُ رسائلَ التهاني بتهنئةِ سُلطانٍ بفتحٍ مستخدماً فيها أفخمَ العباراتِ ، وأرقى الإشاراتِ ، والتي تليقُ بسلطانٍ فاتحٍ، ومَلِكٍ منتصرٍ فيقولُ : (ويُهنِّي المملوك بهذا الفتحِ الجسيمِ ، و كذا الظَفَرِ العظيمِ ، الذي قد ضَحِكَتْ بهِ الدنيا عنْ مبسِمِها ، وتجلَّتْ بهِ شمسُ النصرِ عن سحائبها ، وذلكَ بحُسْنِ اسعادهِ لا بالجيوشِ المتوافرةِ ، وبيُمنِ سيادتِهِ الحكيمة لا هي بالعساكرِ المتكاثرةِ)[٢٦] كما إنَّنا نجدُ كذلكَ في رسائلِ التهنئةِ ما هوَ موجَّهٌ لمنْ تولَّى منصباً جديداً ، لكنَّ الكاتبَ هُنا يلتفتُ التفاتةً لطيفةٌ ويشيرُ إشارةً ظريفةٌ فيجعلُ التهنئةَ هنا موجَّهةً الى المنصبِ نفسَهُ لا الى المنصَّبِ عليهِ ؛ لأنَّهُ أخذَ حظَّاً من الشرفِ بقربهِ ، وازدادَ نباهةً وسموَّاً ، واكتسى جلالاً وعلوَّا فيقولُ : (واعلمُ أنَّها بذلك تأخذُ حظَّاً منْ الشرفِ ؛ لانها أدركتْ قُربَهُ ؛ فهو بذلك حقيقٌ أنْ تُهنَّى بوجوده المناصبُ وتُبشَّرُ بعظمته المراتبُ)[٢٧] .

كما أنَّ الكاتبَ لا ينسى إدراجَ نموذجٍ لرسالةِ تهنئةٍ بمناسبةِ تولِّي منصبَ القضاءِ ،وهو منصبٌ – كما يصفهُ الكاتبُ – (هو منصبَ الشريعةِ النبويةِ ، وهو المَرْتَبَةِ الشريفةِ البهيةِ وهو واسطةُ عَقْدِ المناصبِ والرُتَبِ وهو الجامع بين طرفي الرئاسةِ والحَسَبِ والنسب)[٢٨] .

ثُمَّ نجدُ رسائلَ التهنئةِ تتخذُ مساراً أكثرُ قُرْبَاً منْ المجتمعِ ، ومنْ طَبَقاتهِ ، فنجدُ نموذجٍ لتهنئةٍ بعُرْسٍ ، وأخرى تهنئةٍ بمسكنٍ ،كما لا ينسى الكاتبُ إضافةَ رسالةٍ

تتناولُ تهنئةٍ بمولودٍ جديدٍ ،أو عافيةِ مريضٍ ، أو قدومِ مسافرٍ . كما كانَ للمناسباتِ الدينيةِ حيِّزاً في رسائل التهاني ؛ لما لها منْ أثرٍ كبيرٍ في نفوسِ كُلِّ المسلمينَ رئيسهم ومرؤوسهم ، غنيَّهم

و فقيرهم ، ومنها دخولُ شهرِ رمضانَ ومنْ بعده تهنئةٌ بالعيدِ(٢٦) الذي هوَ فرحةٌ وسرورٌ بعدَ أداءِ الفروضِ .

إنَّ منْ أهمِّ المزايا التي نجدُها في رسائلِ التهنئةِ لدى الشيخ مرعي هيَ اهتمامهُ بالصنعةِ اللفظيةِ وعنايتهِ برسمِ الصورةِ ، وطغيانِ السجعِ الذي أعطى للرسائلِ نغماً صوتياً واستعمالهُ للمفرداتِ استعمالاً متسلسلاً يوحي بالفكرةِ .

٥) التعزية

التعزية لغةً من العزاء : الصبر عن كُلِّ ما فقدتَ . تقول :عزَّيتُ فلاناً :آسيتُهُ(٣٠). وهيَ منْ الآدابِ الإسلاميةِ التي حضَّ عليها الدينُ ؛ لإكمال الشخصيةِ الإسلاميةِ وتحقيقِ التوافق بينَ أبناءِ المجتمعِ ، وشدِّ أواصرِ المحبة بينَ عناصره .

وهيَ من الفضائلِ التي تزيدُ في جمالِ سلوكِ المسلمِ ، وتقربه من القلوبِ والنفوسِ ومنْ بابِ التواصي بالحقِّ وبالصبرِ .وكما تناولَ الشيخُ موضوعَ التهنئةِ ، فقدْ تناولَ – وبنفسِ القوة والعمقِ – النقيضَ منْ ذلكَ ألا وهو التعزية ، مبتدئاً بالتعريفِ عنها بقولهِ : (هيَ التسليةُ ، وكذا الحثُّ على التصبرِ بوعدِ من الأجرِ ، وكذلك الدعاءِ للميِّتِ بالرحمة والمصابِ)(٣١) وقد أوردَ لأجلِ ذلكَ الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ منها : "(منْ عزَّى مُصاباً فلهُ مثل أجرهِ)"(٣٢)، إضافةً الى تضمينِ رسائلَ التعزيةِ أبياتاً شعريةً فيها شيءٌ منْ الحِكْمَةِ .

ويبتدأُ الكاتبُ رسائلَ التعزيةِ بأعظمِ وأجلِّ حَدَثٍ يمكنُ أنْ يُصَيبَ الإنسانَ ، ألا وهوَ فَقْدُ الوَلَدِ وهوَ لعَمْرُ اللهِ مما تنوءُ بحَملهِ الجبالُ ، ويضعفُ أمامَهُ

أقوى وأقسى الرجال ، ولكنَّهم – كما قالَ الكاتبُ – هدايا تُسْتَرَدُّ وتُسْتَرجعُ ، وعطايا تُسْلَبُ وتُنْتَزعُ ، وحَسَنَاتٌ تُدَخَرُ للوالدِيَنِ ، ودرجاتٌ تُرْفَعُ[٣٣] لهما .ولمْ يخرجْ الكاتبُ عنْ إطارِ الأُسْرةِ فأوردَ رسائلَ تعزيةٍ بوفاةِ الزوجةِ[٣٤] ، ووفاةِ الابنةِ[٣٥] .

نجدُ كذلكَ رسالةَ تسليةٍ لمنْ وقعَ في نكْبةٍ[٣٦] ؛ فليسَ الموتُ وحدهُ مما يُعَزَّى بهِ الانسانُ ، فهناكَ منْ المصائبِ ما هيَ شديدةُ الوقْعِ ، والتأثير على بني البشرِ فنجدُ رسائلَ في تسليةِ منْ تخلَّصَ منْ حَبْسٍ ، محوِّلاً بكلماتهِ المعبِّرةِ المحنةَ الى منحةٍ والألَمَ الى أملٍ ، فالحبسُ – كما وصفهُ الكاتبُ – كانَ(فهو كاحتباسِ الغيثِ في غَمَائمهِ وهو كاختفاءِ الزهرِ في كمائمهِ)[٣٧] وهذهِ معانٍ لطيفةٌ ، وإشاراتٌ مُبْتَكَرَةٍ ، تهوِّنُ على الإنسانِ ما هو فيهِ وتُنسيهِ آلامَ التجربةِ ، وما كانَ يُقاسيهِ .

٦) الوصايا والشفاعة

أفردَ الكاتبُ لرسائلِ الشفاعةِ والتوصياتِ باباً جعلَ عنوانَهُ مقولةً للإمامِ الشافعي (رحمه اللهُ) وهيَ: "(الشفاعاتُ زكاةُ المروءاتِ)"[٣٨] ، كما أنَّهُ ابتدأَ كلامَهُ بإيرادِ الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ التي جاءتْ لهذا الغرضِ النبيلِ إضافةً الى أنَّهُ لمْ ينسَ تضمينَ كلامهِ ، ورسائلِهِ أبياتاً شعريةً تُشيرُ الى فضلِ السعي لقضاءِ حوائجِ الناسِ والتوسِّطِ بينهم بالخيرِ ، وكعادةِ الكاتبِ في تنوُّعِ الرسائلِ المُرسَلَةِ بتنوُّعِ المُرْسَلِ اليهم وتنوُّعِ مواضيعِها تحتَ تسمية الغرضِ الواحدِ فقدْ تنوعتْ الرسائلُ بيْنَ توصيةٍ على فاضلٍ مُتَضَلِّعٍ منْ معرفةِ العلومِ الدينيةِ ، والفنونِ الأدبيةِ ، معَ فَهْمٍ قادحٍ وعقلٍ راجحٍ[٣٩] ، وبينَ رسالةِ توصيةٍ على كبيرٍ ، منْ أربابِ البيوتِ الشريفةِ والعناصرِ المُنيفةِ ، ولكنْ قَعَدَ بهِ الوقتُ بعدَ القيامِ ، وأحالَ حالَ وَجْدِهِ الى الإعدامِ(٤٠) وبينَ توصيةٍ باغتفارِ زلةٍ[٤١] بعدَ أنْ

ابتدأها بمدحِ المُخاطَبِ بكُلِّ صفةٍ جميلةٍ وخُصلةٍ لطيفةٍ ، معَ اعترافِ المُذْنبِ بذنبهِ وتوبتِهِ الى رَبِّهِ . ومنْ شِيَمِ الكِرامِ جبرُ القلوبِ وإنالةُ المطلوبِ[٤٢] .

لقدْ احتوتْ الرسائلُ على العديدِ منْ الوصايا على شَكْلِ جُمَلٍ قصيرةٍ سريعةٍ ، أشبهُ ما يكون بما يُعرفُ اليومَ ببطاقاتِ التوصيةِ ، والوساطةِ ، والتي يرفعها الناس الى المسؤولينَ والحكَّامِ من ذوي الشأنِ ؛ لإنجازِ أمرٍ منْ الأمورِ . ولقدْ تميَّزَ فيها الكاتبُ بتناولهِ لموضوعِ الطبقةِ العامةِ واستعملَ فيها الأسلوبَ المباشرَ ، وانتقى أكثرَ عباراتِ التوصيةِ تأثيراً في المُرْسَلِ إليهِ .

الهوامش

١) يُنظر : كشف الظنون :٢/ ١٩٤٨ ، وخلاصة الأثر : ٤ / ٣٥٨ – ٣٦١ .
٢) يُنظر : خلاصة الأثر : ٤ / ٣٥٨ .
٣) مجلة البحوث الاسلامية – العدد (٥٢) من رجب الى شوَّال / ١٤١٨هـ .
٤) يُنظر : نقد الشعر : ٧٠ ، ومنهاج البلغاء وسراج الادباء : ٣٠٤ .
٥) بديع الانشاء : ١١٦ .
٦) يُنظر : مصر العثمانية : ١٢٧ – ١٤٩ .
٧) بديع الانشاء : ١١٧ .
٨) المصدر نفسه : ١٣١ .
٩) يُنظر : المعجم الأدبي : ٢٤٥ ، والمديح في الشعر العربي : ٦ .
١٠) بديع الانشاء : ١١٨ .
١١) المصدر نفسه : ١٢٨ .
١٢) المصدر نفسه : ١٣٦ .
١٣) المصدر نفسه : ١٤٢ – ١٤٣ .
١٤) المصدر نفسه : ١٤٥ .
١٥) المصدر نفسه : ١٤٤ .
١٦) المصدر نفسه : ١٤٦ .
١٧) يُنظر : العين :٢ / ٧٦ .
١٨) يُنظر : لسان العرب : ٥٧٧ .

١٩) بديع الانشاء : ١٨٤ .
٢٠) المصدر نفسه : ١٨٦ .
٢١) المصدر نفسه : ١٨٩ .
٢٢) المصدر نفسه : ١٩٣ .
٢٣) المصدر نفسه : ١٩٤ .
٢٤) المصدر نفسه .
٢٥) يُقال : هنَّأهُ بالأمر هَنْأ ، وهنَّأهُ تهنئةً وتهنيئاً . يُنظر : لسان العرب : ١ / ١٨٥ .
٢٦) يُنظر : بديع الانشاء : ١٩٩ .
٢٧) المصدر نفسه : ٢٠١ .
٢٨) المصدر نفسه : ٢٠٣ .
٢٩) المصدر نفسه : ٢١٠ .
٣٠) يُنظر : لسان العرب : ١٥ / ٥٢ .
٣١) بديع الانشاء : ٢٣١ .
٣٢) المصدر نفسه : ٢١٣ .
٣٣) المصدر نفسه : ٢١٥ .
٣٤) المصدر نفسه : ٢٢٠ .
٣٥) المصدر نفسه : ٢١٩ .
٣٦) المصدر نفسه : ٢٢٠ .
٣٧) المصدر نفسه : ٢٢١ .
٣٨) المصدر نفسه : ٢٢٢.
٣٩) المصدر نفسه : ٢٢٥ .
٤٠) المصدر نفسه : ٢٢٦ .
٤١) المصدر نفسه : ٢٢٧ .
٤٢) المصدر نفسه : ٢٣٠ .

المصادر

١) بديع الانشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات ، الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ، مخطوط في جامعة الامام بن محمد بن سعود الاسلامية برقم (١٦٥٠) (وهو موضوع الدراسة والبحث والتحقيق).

٢) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي ،الحموي الاصل ،الدمشقي (ت١١١١هـ) ، دار صادر بيروت .

٣) العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ) ، تحقيق د. مهدي المخزومي ، وابراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال .

٤) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، مصطفى بن عبدالله كاتب حلبي القسطنطيني ، المشهور باسم حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٤١م

٥) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ،أبو الفضل جمال الدين ، ابن منظور الانصاري (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ .

٦) المديح في الشعر العربي ، سراج الدين محمد ، دار الراتب الجامعية ، لبنان .

٧) مصر العثمانية ، جرجي زيدان ، تحقيق د . محمد حرب ، دار الهلال ، ١٩٩٤ .

٨) المعجم الادبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢-١٩٨٤.

٩) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) تحقيق د . الحبيب بن الخوجة الدار العربية للكتاب ، تونس ، ٢٠٠٨م .

١٠) نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ، تحقيق محمد عيسى أمنون المطبعة المليجية مصر الطبعة الاولى ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤م .

المجلات :

١) مجلة البحوث الاسلامية - العدد (٥٢) من رجب الى شوّال / ١٤١٨ هـ .